

## الارجاعية بين الأصل الاصطلاحي والتطبيقات العيادية – اقتراب مفاهيمي

### A conceptual approach to regression from the terminological origin to clinical applications

سعدية شارف<sup>1</sup>، عطار أسيا<sup>2</sup>

<sup>1</sup> جامعة عمار ثليجي (الجزائر)، [s.charef@lagh-univ.dz](mailto:s.charef@lagh-univ.dz)

<sup>2</sup> جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، [assia.attar@univ-alger2.dz](mailto:assia.attar@univ-alger2.dz)

مخبر الصحة النفسية جامعة عمار ثليجي الاغواط

تاريخ الاستقبال: 2024/11/13؛ تاريخ القبول: 2024/12/15؛ تاريخ النشر: 2025/02/10

**ملخص:** تهدف هذه الدراسة الى تناول مفهوم الارجاعية من حيث التأصيل الاصطلاحي وذلك عبر التدرج الكرونولوجي التاريخي في التراث النفسي اذ لم يعد موضوع الارجاعية جديدا طارنا على الادبيات النفسية عموما و العيادية خصوصا بل تعدى الى علوم أخرى ابرزها علم النفس الإيجابي وكون الارجاعية تشير الى قدرة ديناميكية لدى الفرد، تتجه نحو استثمار الجانب الإيجابي في الأحداث الصدمية والمحن التي عاشها، واعتبارها كنقطة انطلاق نحو مواجهة تلك الصعاب وتجاوزها ومحاولة التطور الذاتي فأكثر، فهي ليست مجرد شكل من أشكال المقاومة النفسية فحسب، بل أكثر من هذا فهي تشير إلى الآثار الايجابية التي ظهرت ولم تكن موجودة من قبل باعتبار هذا تطرقنا في هذه الورقة العلمية البحثية الى التطبيقات العيادية التي يمكن ان تجلي منافع في الميدان العلاجي من ناحية والميدان العلمي المفاهيمي من ناحية أخرى ذلك انها تقودنا الى فك شيفرة من اهم المعضلات التي يسعى علم النفس لضبط تعريف او مفهوم لها الا وهي الشخصية.

**كلمات مفتاحية:** الرجوعية، التطبيقات العيادية، المفاهيمية.

#### ABSTRACT:

his study aims to address the concept of **resilience** from a terminological foundation through a chronological historical progression in psychological heritage. The topic of resilience is no longer new or emergent in psychological literature in general and clinical literature in particular. It has extended to other sciences, most notably positive psychology. Resilience refers to a dynamic ability in individuals to leverage the positive aspects of traumatic events and adversities they have experienced, considering them as a starting point to face and overcome these difficulties and strive for further self-development. It is not merely a form of psychological resistance but more than that; it indicates the positive effects that have emerged and were not present before. In this research paper, we address the clinical applications that can reveal benefits in the therapeutic field on one hand and the scientific conceptual field on the other. This is because it leads us to decode one of the most important dilemmas that psychology seeks to define or conceptualize, namely, personality.

**Keywords:** resilience, clinical applications, Conceptual.

لم يعد مصطلح الارجاعية ذلك الحقل الجديد الذي يستكشفه الباحثون لسبر غوره ولكنه في نفس الوقت اصبح تتنازعه العلوم فيمن مجال علم النفس العيادي الى مجال علم النفس الإيجابي، لذا وجب تأصيل الاصطلاح و ضبطه مفاهيميا ذلك ان الارجاعية تتجاوز او تأخذ ترادفا لغوية واصطلاحيا فيرادفها مثلا المقاومة النفسية والجلد والتعلق والصلابة النفسية والمرونة النفسية، الاسترداد، لكن الاختلاف يكمن في سيرورة الارجاعية التي تتعامل مع الخطر الخارجي الذي تحدثه التجارب الصدمية و المؤلمة بحيث تسمح بإيجاد تطور بديل او جديد بعد التجربة الصدمية اذ يستند هذا النسق السيروري على قوة البناءات النفسية الداخلية التي حققها الفرد وعلى عوامل الحماية الداخلية والتي تجعل الفرد يعود بعد نكست الصدمات والمحن ويحمل صفة الرجوعي وفي بحثنا هذا ركزنا على المعالجة المفاهيمية الاصطلاحية للرجوعية وكذا اشرنا للمعالجة الكرونولوجية لتدرج التعامل مع الاصطلاح عبر مراحلها التاريخية، ثم ختمنا بالتطرق لتطبيقات الارجاعية العيادية .

## 1. التدرج الكرونولوجي لمصطلح الرجوعية:

يمكننا اعتبار بدايات الإشارة الى مفهوم الارجاعية من خلال أعمال Freud حين لاحظ اختلاف الاستجابة بين الافراد إزاء الأحداث الصادمة خاصة وانهم لا يطورون عصاب كلهم، وكأنه كان يؤكد بدايات العمل عن الارجاعية حين كتب: "الاخطار مشتركة بين جميع البشر، هي متشابهة لدى جميع الافراد، ما نحتاجه وما لا نملكه، هو عامل يوضح لنا لماذا هؤلاء الافراد قادرين على تحمل معاناة الضغوط بالرغم من تأثيرها الخاص على التوظيف النفسي العادي، أو نتعرف على الذي يفشل إزاء هذه المهمة. (Anaut, 2008, p. 13)

ما أشار اليه Freud كان أساسا لأعمال Rutter, Werner وكذلك Garmezy. الذين وضعوا الأسس النظرية والمبادئ المنهجية للأبحاث في هذا المجال وكتاباتهم عن إستراتيجية مواجهة الضغوط والتطور أكبر دليل على ذلك. ثم توالى الأبحاث صريحة حول مفهوم الارجاعية عند الطفل والمراهقين كأعمال Fritz (1969) و Garmezy (1973) حيث درس الارجاعية في مجال ما يعرف بعلم الوبائيات والذي يدرس الافراد الذين يتعرضون للمرض ومن منهم لا يتعرض له، ولماذا؟ وذلك للكشف عن عوامل الخطورة وعوامل الوقاية، والتي تساعد كثيرا للوصول لضبط تعريفا للرجوعية، بعد ذلك تحول الدارسون لصياغة أدوات للنظر في نظم تنمية الرجوعية. كما أن أعمال Bowlbi ونظرية التعلق لها الفضل الكبير في التأسيس لدراسة الارجاعية أين كان من الممكن أن يستخدم كمصطلح ليعين "الروح المعنوية" والتي تعني حسب Mâncio & Cool نوعية الشخص الذي لا يفقد العزم، ولا يقبل الهزيمة. من جهتها Emmy Werner تعد من بين العلماء الأوائل الذين وضعوا الأسس لظهور مفهوم الارجاعية حيث قامت بدراسة طولية بمواي قامت خلالها بملاحظة أكثر من مئتين (200) طفل عايشوا ظروف جد صعبة ( ولادة عسيرة، ظروف معيشية صعبة، عنف، تعاطي الكحول ) وذلك لمدة ثلاثين سنة، وجدت أن أكثر من ثلثهم تمكنوا من النمو والتطور والعيش السليم بالرغم من الشدة والمعاناة ومختلف عوامل الخطر، هذه الدراسة سلطت الضوء على هؤلاء الأطفال الذين يسمون (بالرجوعين) منذ ذلك الوقت تغيرت النظرة الموجهة الى عوامل الخطر وتفسيرها، حيث أنه لا يمكن الحكم تماما على الفرد من خلال النسق وعوامل الخطر لأنها لا تؤدي بالضرورة الى الانهيار النفسي والوجودي ومستقبل تعيس، فحياة الشدة والمحن يمكن أن تكون نبع للنمو خاصة مع الابداع، وبعد أبحاث Emmy Werner بأربع سنوات جاءت دراسة Tom Kiewicz و Cyrulnik في الثمانينات لتخصص فصل كامل من كتاب "الطفل وصحته"، لمصطلح هو عكس الجروحية، وتواصلت أعمال Cyrulnik في هذا المجال حيث ساهم بالكثير في دراسة هذه الظاهرة وانتشارها عبر العديد من مؤلفاته مثل: Ces Un merveilleux و Les Vilains petits canards و Le Murmure des fantômes, enfants qui tiennent le coup و De chair et d'âme ... الخ. (Bouzriba , 2013, p. 75)

وفي الثمانينات، تم نشر العديد من الكتب في الولايات المتحدة حول الارجاعية وكذا إجراءات دراستها، ان هذا التراكم النظري الذي اعنى الاهتمام بدراسة موضوع الارجاعية مع اعتبار حداثة وقلة تناول اعتبر ارهاصات أولية كونت للرجوعية مفهوم نسقي متكامل مهم جدا في تحديد رؤية جديدة لتوظيف التكيف في مواجهة عوامل الخطر وبمعية سلسلة من المواقف الوقائية والإمكانات الخلاقة كالإبداع، وتطوير بعض الخصائص التي تجنب التحول الذهني للمعاناة الإنسانية وبالتالي الانتكاس، ولقد أصبح اليوم من بين الموضوعات الأكثر دراسة حيث أحصي (1023) أطروحة دكتوراه قدمت منذ 1968 وصدر في شهر أوت 2010، (4641) ملف يتحدث عن الارجاعية موجود بقاعدة المعطيات الرئيسية لعلم النفس.

(Shankland, 2014, p. 25)

## 2. المعالجة المفاهيمية لمصطلح الرجوعية:

تسميات مرادفة لمصطلح الجلد La Resilience في ترجمته الى اللغة العربية:

ان أصل كلمة الارجاعية Resilience لاتينية جاءت من Résilientia وهي مستعارة من علم فيزياء المواد، لتعني مقاومة المادة للصدمات القوية، وقدرة بنية ما على امتصاص الطاقة الحركية للوسط دون أن تتحطم إذن في علم المعادن، وتعني الارجاعية كذلك خاصية المواد التي تتمتع باللدانة والمهاشة في ذات

الوقت والتي تظهر قدرة على استعادة حالتها البدائية بعد صدمة أو ضغط متواصل. حسب القاموس التاريخي للغة الفرنسية، كلمة Résilier تتكون في الأصل من re ويعني حركة نحو الوراء و salire وتعني القفز أو الوثب، إذن Resilience تعني الوثب إلى الخلف. (Anaut, 2008, p. 35)

يوجد في التراث العربي عدة مصطلحات ومفاهيم مترجمة لمصطلح Resilience، وهذا لثراء اللغة العربية، وتعتبر هذه المصطلحات متقاربة في المعنى للدلالة على تعريف ومفهوم هذا المصطلح اللاتيني المنشأ، وفي مجملها هي مفاهيم معاصرة تناول القوة الإنسانية الفعالة والاتجاهات الوقائية نحو تحسين الحالة النفسية للفرد وان كانت هناك فروق حسب المنظور الذي ينتهجه المترجم. اخترنا البعض منها على سبيل المثال لا الحصر:

**1.2. المقاومة النفسية:** يعرفها كل من Connor et Zang (2006) بأنها: سمة إنسانية لها العديد من الأوجه التي تختلف باختلاف الجنس والسن، والوقت، والسياق، والأصل الثقافي، كما يريان أن أهم الخصائص التي تميز المقاومة: الالتزام، والدينامية، والفكاهة في مواجهة الشدائد والصبر والتفاوض، والإيثار، كما يعرفها Bonano (2004) بأنها: القابلية للنجاح والازدهار بالرغم من التقلبات المعيارية التي تحدث في مختلف مراحل العمر. (بركات، 2017، ص 28)

كما جاء في معجم المعاني: قاوَمَ: فعل قاوَمَ يقاوِم، مقاوِمَةٌ وقواوِمًا، فهو مقاوِم، والمفعول مقاوَمٌ ظل يقاوِم المَرَضَ: يصارع المَرَضَ يواجه قاوم الجسم المرض: قام بَرَدَ فعل ليزيل تأثيرَ المرض أو يخفف من ضرره. (2023، www.almaany.com)

**2.2. المرونة:** يغلب استخدام مصطلح المرونة في التراث العربي كترجمة لمصطلح Resilience، والذي يعني أي المرونة في معجم مقاييس اللغة لين شيء، كما جاء في لسان العرب: مرِنٌ يمرِن مرانة ومرونة: وهو لين في صلابة، ومرنت يد فلان على العمل أي صلبت واستمرت، والمرانة: اللين. مرِنٌ: فعل مرِنٌ، مرِنٌ على يمرِن، مرانةٌ ومرونةٌ، فهو مرِنٌ، والمفعول ممرُونٌ عليه مرِنٌ الشيء: لأن في صلابة مرِنٌ سلوك الشخص: سلس وتكيف حسب الظروف. وعرف مصطفى حجازي المرونة النفسية على أنها: قدرة الفرد على إيجاد البدائل والتكيف الاجتماعي للضغوطات أو تحمل الإحباط والتعلم والتغيير، ويعتبرها من أكبر مؤشرات الصحة النفسية، حيث يتصف الافراد المرينين بعدم التصلب والنمطية الأحادية، فهم متكيفون سواء في التعامل مع الحاجات النفسية وكيفية اشباعها أو من خلال تفاعلهم الاجتماعي، وقد رتّم على الابداع. (حجازي، 2006، ص 37)

وتجّد السعيد أبو حلاوة يرى المرونة النفسية على أنها: القدرة على مواجهة الشدائد والمصاعب بصلابة، والقدرة على التعافي والتجاوز السريع للتأثيرات السلبية لحن الحياة واحداثها الضاغطة.

**3.2. المرونة الاستيعابية:** يعتمد مصطفى حجازي حيث يرى أنه يتضمن بعدين هناك من ناحية التعرض للشدّة أو الحنة، وهناك في المقابل التكيف الاستيعابي ذو النتائج النمائية. وتتعدد أشكال الحن إلا أنها تكون عادة من النوع الذي يعيق النمو السليم أو النشاط الوظيفي الفاعل. كما أن معيار الاستيعاب هو عدم الوقوع في المرض أو الاضطراب، وابداء كفاءة حياتية أو اجتماعية أو نجاحا في المواجهة، وصولا الى اكتساب قدرة أعلى على المواجهة، والتمتع بصلابة أكبر في وجه الشدائد. وهناك من يعتبر أن المرونة الاستيعابية تتجاوز التكيف الفاعل للمحن، وصولا الى إبداء القدرات على إدارة دقة الحياة (فرديا أو جماعيا)، وصولا الى توفير الموارد المادية والنفسية والاجتماعية التي تكفل حسن حالهم واستدامته، ضمن ظروفهم الحياتية وبطرق ذات معنى. (حجازي، 2012، ص 225)

**4.2. الصمود:** الصمود هو القوة التي تسمح للإنسان أن يتجاوز التحديات وينهض، ليحقق النمو والكفاءة، ويستمد مفهوم الصمود مكانته على الخريطة العلمية من المشهد الاجتماعي، حيث تحيط بالإنسان منذ نشأته تحديات لا قبل له بتجنبها ولا قبل له بالتغلب عليها، وعليه أن يواجهها أو يتعايش معها أو يتجاوزها حيث يعرف الصمود حسب معجم المعاني دائما:

صمود: اسم، صمود: مصدر صَمَدٌ، صَمَدٌ: فعل صَمَدٌ، صَمَدٌ على، صَمَدٌ في يَصْمَد، صَمَدًا وصمودًا، فهو صامد والمفعول مصمود عليه صَمَدٌ في وجه الاستعمار: قاومه، عارضه وتحدها: صَمَدَتِ الشركة في وجه الحنة، صَمَدَتِ القضية للهجوم في المحكمة صَمَدٌ في مواجهة النوازل: صَبَرَ وتحمل صَمَدٌ في وجه الظلم: وقف. (كمال، 2022، ص 998)

**5.2. الجلد:** حيث يعني الجلد لغة: فعل جَلَدٌ يَجْلُد، جَلَدًا وجَلادَةً وجلودًا، فهو جَلْدٌ والجمع: أجلاد، وجلاد جلد على تحمّل المكاره: كَانَ ذَا صَلَابَةٍ وَصَبْرٍ على تحمّلها أظهرَ جلدًا أمامَ أعدائه: أي الصبر، القوة، الاستماتة جلده على الأمر: حمّله وأكثره عليه رجل جلد: الشديد على تحمّل المكاره والمصائب جلد على مواجهة الشدائد: قوي (www.almaany.com، 2023)

تعريف الجلد حسب بعض التخصصات: نورد هنا بعض تعريفات الجلد حسب مختلف توجهات الباحثين.

- من اللاتينية rescindere: فعل الإلغاء أو فعل إنهاء اتفاقية.
- المعنى القانوني: التخلي، الانسحاب.
- في علم المعادن: قدرة المواد على استعادة حالتها الأولية بعد تأثير (صدمة) أو ضغط مستمر.

- ترجمة القاموس الانجلو سكسوني: القوة المعنوية، نوعية شخص لا يمكن هزيمته.
- في الاعلام الآلي: جودة نظام، تسمح له بالاستمرار في العمل بالرغم من وجود خلل في واحد أو أكثر من مكوناته.
- علم البيئية: القدرة على استعادة أو تجديد تنظيم أو أفراد.
- الاقتصاد الاجتماعي: القدرة الجوهرية للشركات والمنظمات والمجتمعات المحلية لإيجاد توازن.
- الأنتروبولوجيا: وجود إمكانية لدى بعض المجموعات الإثنية أو مجتمعات أو لغات أو أنظمة معتقدات، للحفاظ على آثار تراثها.
- الطب: العلاقة مع المقاومة الجسدية والظواهر العفوية الشفاء والتعافي المفاجئ.
- علم النفس علم الضحية، علم الإجرام: تقوية القدرة على استعادة التوازن الانفعالي من خلال فهم أفضل للمحتوى النفسي.
- علم النفس المرضي: قدرة الأفراد والنظم على التغلب على الشدائد أو المواقف الخطرة.

(مزردى، 2016، ص 176)

**6.2. المعالجة الاصطلاحية للرجوعية:** على قلة البحوث التي عالجت موضوع الارجاعية فإنه هناك بعض التعاريف الاصطلاحية التي حاولت ضبط مفهوم نذكر منها:

يعرفها مصطفى حجازي من وجهة نظر علم النفس باعتبارها قدرة الناس أفراد أو جماعات على التعامل مع الشدائد والمحن، قد يتخذ هذا التعامل طابع الانحناء أو الارتداد الى الوراء، ومن ثم العودة الى الحالة الطبيعية واستئناف النمو أو النشاط الوظيفي المعتاد. أو هو يؤدي الى استخدام التعرض للمحنة من أجل تطوير مناعة نفسية وقدرة على القيام بنشاط وظيفي أفضل مما هو متوقع، تماما على غرار اكتساب المناعة الحيوية ضد المرض من خلال أخذ اللقاح. وهو ما يوفر للشخص تعاملًا أفضل مع محن مستقبلية والتحصن ضد الشدائد. وينظر الى الارجاعية بمثابة عملية تفاعلية مع المحنة أكثر من النظر اليه بمثابة صفة أو سمة يتمتع المرء بها فطريا. إنها عملية دينامية يبدي الافراد خلالها تكيفا سلوكيا إيجابيا أو نمائيا حين يواجهون صدمات أو محن ذات شأن أو تهديدات جادة أو مآسي، أو شدائد فعلية، وذلك في مقابل الانهيار والوقوع في المرض أو الاستجابات السلوكية غير المتكيفة والمعطلة للنمو السليم. (حجازي، 2012، ص 226)

وحسب Masten فإنها امتصاص الضغوط والانحناء لها والعودة من ثم الى الوضع الطبيعي السابق، مثل انحناء نبتة الخيزران أمام ضغط الريح الشديد، والعودة ثانية الى الانتصاب بعد زوال الضغط، أو تمدد قطعة مطاط بتأثير من الشدة والعودة الى حالتها الطبيعية، أو القدرة على التكيف وصولا الى امتصاص الصدمة، والعودة الى الحالة الطبيعية. وهو ما يعني التكيف لحالة الضغط واستيعابها والعودة الى الحالة الطبيعية. (حجازي، 2012، ص 225)

ويعرفها الاتحاد الدولي للهلال الأحمر على أنها: قدرة الأفراد أو المجتمعات المحلية أو المنظمات أو البلدان المعرضة للكوارث أو الأزمات ومواطن الضعف الكامنة المرتبطة على توقع تأثيرات الشدائد وتخفيف وطأها ومواكبتها دون الإضرار بفرض الازدهار في الأجل الطويل. (الهلال الأحمر، 2012، ص 10)

يعرفها Sillamy على أنه مقاومة الفرد أو الجماعة لعوامل وجودية صعبة، بالتالي القدرة على العيش والنمو رغم الظروف الغير ملائمة أو الكارثية. (Sillamy, 1999, p. 226)

تعريف Michael Ruter (1992) للرجوعية أنها مجموعة من الوظائف الاجتماعية والبيئية النفسية التي تمكن من الحياة السليمة في وسط غير سليم، هذه الأخيرة تتحقق عبر الزمن من خلال توافقات بالصدفة بين مكونات الطفل والنسق العائلي الاجتماعي والثقافي. كما يعرف Azlina & chahrir (2010) الارجاعية بأنها قدرة الفرد على التعافي من الامراض والاكئاب والمصائب وهذا يتطلب من الفرد القدرة على التكيف الفعال الذي يتضمن كل الأفكار والأفعال. ويعرف Krsimer (2005) الارجاعية بأنها عملية بناء تنطوي على معنى إيجابي للحياة، ويمكن تنميتها لدى الأفراد من خلال تنمية خصائصه وسماته. يعرف Cutuli & Masten (2009) الارجاعية بأنها عملية تشتمل على العديد من الأنظمة بدءا من الأفراد الى المجتمعات فأحيانا ما يشار الى فرد بأنه لديه قدرة أقل أو أعلى من الارجاعية ولكن الشكل الحقيقي لسلوك الفرد سينشأ نتيجة للعديد من التفاعلات فلا يمكن أن ننظر لها كونها سمة فردية ففي حياة أي شخص تتشكل الارجاعية من مصادر وعمليات متعددة تشكل مسار الحياة الإيجابية، ومن ثمة فالعديد من سمات الفرد والعلاقات ومصادر القوى الأخرى يتم تضمينها في هذه العمليات، لذا فالجهود التي تحدد السمة الكوكبية للجلد النفسي والتي تقي الأفراد ضد أي شدة دائما ما تكون خادعة. (العوني، 2016، ص 16)

ويعرف محمد سعيد (2012) الارجاعية بأنها توجه إيجابي في الحياة، يعني القدرة على التوافق النفسي مع النفس والواقع، ولكن في سعي دائم الى التغيير لما هو أفضل، وهي أيضا تعني صلابة التكوين، والمضي في الحياة من خلال أهداف ومعاني نسعى إلى بلوغها، والتمكن من الضغوط باستثمار إمكانيات الإنسان وقدراته، وعدم الاستسلام لضغوط الحياة أيا كان شكل هذه الضغوط، وأن هذا الارجاعية كامنة في داخلنا وتحتاج لمن يخرجها ولاسيما في مواقف الشدة

والضغط. ويعرف يحي عمر شقورة أن الارجاعية هي قدرة الفرد على مواجهة المواقف المختلفة بفعالية والرد عليها بشكل عقلاي، واقامة علاقة طيبة مع الآخرين، أساسها الود والاحترام المتبادل وتقبل الآخرين. (شقورة، 2012، ص 10)

وهو الحصول على أحسن النتائج بالرغم من المحن الشديدة التي تهدد التكيف والتطوير. (أبوزيد، 2014، ص 28)

كما يعرفها Luthar أنها عملية دينامية يتخللها تكيف إيجابي في سياق تكتنفه المحن والشدائد. ويرى Baker & Cichelli أن الارجاعية يمكن أن تتطور على مدى الحياة. (Zacharyas, 2010, p. 29)

أيضا الارجاعية هي القدرة على المواجهة المثمرة ضد موقف شديد الضغط بسبب شدته من جهة والخطورة التي يشكّلها من جهة أخرى أيضا إسترداد التكيف والنجاح في العيش والتطوير إيجابيا بالرغم من هذه الظروف الغير مواتية. (Do Thanh, 2013, p. 31)

وتعرف أيضا أنها النهوض من جديد، والتوجه نحو المستقبل بعد مرض أو صدمة أو ضغط، أي هو تحمل مشاق وأزمات الحياة، بمعني مقاومتهم، ثم تخطيهم للعيش أفضل. أي تجاوز العراقيل. (Chelala, 2012, p. 91)

لقد قدم Vanistendael (1996) من جهته تعريفا للرجوعية على أنها القدرة على النجاح والتطور ايجابيا بطريقة مقبولة اجتماعيا بال رغم من تعرضه لحالة من الضغط أو الشدة التي يفترض أن تحمل في طياتها خطورة شديدة ومآل سلبى. (شرقي، 2010، ص 9)

كما تعني الارجاعية على حد تعبير Cyrulnik (2001) فن الإنجار في السيول الغزيرة، أي فن التكيف في الوضعيات المأساوية بتطويع العوامل الداخلية والخارجية. إنه القدرة على النجاح، العيش والتطور إيجابيا على نحو مقبول اجتماعيا، بالرغم من الضغوط أو المحن التي تحمل في طياتها خطر حقيقيا لمخرج سلبى. (طالب، 2010، ص 17)

تعرف الارجاعية في علم النفس الفردي كقدرة لنمو البالغين حيث يؤكد كل من Armstrong, Birnie-Lefcovitch & Ungar (2005) على أنها نوعية التفاعل وكذا المعاملة بالمثل أثناء الطفولة، تعد في آن واحد عوامل حماية وخطر وكذا عمليات تطوير الإدراك وتنظيم السلوك والتفاعلات بين أولياء الامور والبيئة في العثور على الجانب المعياري للرجوعية في مواجهة صعوبات كبيرة. ولرؤية الارجاعية كاستجابة للتحديات النماية أو التكيفية. بالإضافة إلى الإصرار على الصمود على أنه مزدهر، يفتح الباحثون أيضا الباب أمام الارجاعية كفرصة تنموية للبالغين، أيضا تتميز الارجاعية باضطرابات خفيفة وقصيرة الأجل نسبيا ومسار ثابت عبر الزمن للعمل الصحي. إن الأداء الصحي عبر الزمن يمكن أن يكون وصفاً لازدهار ويتناسب بشكل جيد مع علم النفس الأدليري حيث أن "الأداء" يمكن أن يقف للحركة بإجراءات مباشرة للتغلب عليها وصحية يمكن أن تمثل المصلحة الاجتماعية أو التعاون، الأشخاص الجلدون، في وجهة النظر الأدليرية، نشطون. وفقا لـ Adler (1931) لا يؤجلون الاعمال ولا يقاومون العمل. إنهم لا يعلنون أنهم غير قادرين على حل مشكلتهم من خلال إظهار موقف متزدد. كالبدا بالتهرب ومحاولة تأمين أنفسهم في مواجهة حل للمشكلة الضرورية.

(Armstrong, Birnie-Lefcovitch, & Ungar, 2005, p. 115)

ومما سبق نلاحظ أن جل التعاريف المذكورة تتفق على أن الارجاعية هي قدرة الفرد على تخطي صعاب ومشقات حياتية صدمية بنجاح وإيجابية للوصول إلى تكيف نفسي واجتماعي، زيادة على ذلك مواصلة هذا النجاح بإعادة استخدام موارد ذاتية داخلية، بالتوازي مع دعائم محيطية او بيئية.

وعرفتها Joëlle Lighezzolo & Claude Detychey (2004) على أنها " مجموعة من العمليات التي تهدف الى خفض والغاء كل تغيير من شأنه تعريض وحدة الفرد للخطر واستقراره البيو نفسي ". (Joëlle & Claude, 2004, p. 43)

كما أعطى Alain Braconnier تعريفا لها إذ يقول بأن " مفهوم الميكانيزم الدفاعي يشمل كل الوسائل التي يستعملها الأنا للسيطرة والتحكم ولتقنين وتوجيه الأخطار الداخلية والخارجية. (Anaut, 2008, pp. 4-11)

وفي معجم مصطلحات التحليل النفسي ميكانيزمات الدفاع هي عمليات تهدف إلى التقليل أو محو التغيرات التي يمكنها أن تؤدي إلى اختلال التوازن النفسي الجسدي الداخلي. (ميموني و ميموني، 2010، ص ص 126-127)

لقد اجمع الباحثون أنه من الصعب التأكيد على وجود ميكانيزمات دفاعية محددة بالرجوعية، كون الانسان ابن بيئته ويستدعي ميكانيزمات دفاعية حسب الموقف المواجه في حينه وحسب النسق الذي ينتمي اليه. وما يملك الفرد ويكتسب ويطور من دفاعات تكون له العدة والذخيرة وقت الحاجة وبما يمكنه بناء وهيكله الارجاعية وانجاحه. ويرى Detychey (2001) أنه توجد العديد من الدفاعات التي يمكن أن يلجأ لها الفرد الرجوعي ومن أهمها الخيال وحس الفكاهة والرفض، والإيثار، الغيرية، الانشطار، التسامي وهذه الميكانيزمات يلجأ اليها الفرد في المرحلة الحاسمة للصدمة أي في الوقت الأول للرجوعية. وتعتبر " كتنظيم دفاعي يعمل على تخفيف الصدمة في بدايتها."

كما يلجأ الفرد الرجوعي الى تنشيط العقلنة لإعطاء معنى لما حدث، في الوقت الثاني للجلد من خلال ترجمة الصور والانفعالات الى كلمات وتمثيلات ذات معنى إيصالها وشرحها للمحيط وفهمها من طرف الفرد ذاته بالأساس وبالتالي إعادة وتنظيم الذات واصلاح ما أفسده الاحتراق الصدمي والتعايش مع الوضع الجديد. (Anaut, 2008, p. 58)

نركز في مجال توازي الارجاعية مع ميكانيزمات الدفاع على أهم ميكانيزمين يستخدمهما الفرد أثناء تطويره لقدرة الارجاعية وهما ميكانيزم التسامي في وقت بناء الارجاعية الاول وميكانيزم التعقل كميكانيزم على المدى الطويل.

### أولاً: ميكانيزم التسامي

لقد افترض فرويد هذه العملية لتبيان النشاطات الإنسانية التي لا صلة ظاهرية لها مع الجنسية، ولقد أطلق فرويد أساساً وصف التسامي على النشاط الفني والاستقصاء الذهني فإطلاق تسمية التسامي على النزوة بمقدار تحولها الى هدف جديد غير جنسي، حيث تستهدف موضوعات ذات قيمة اجتماعية، إذا استطاع فرد معين أن يستبدل بأهدافه القريبة أهدافاً أخرى تمتاز بأنها أرفع قيمة من الناحية الاجتماعية وثانياً بأنها غير جنسية، فقد قام بعملية "التسامي". كما يرى فرويد حسب نفس المصدر أن التسامي هو الأساس الذي تعتمد عليه العمليات المشتركة في الابداع الفني ويؤدي الى إظهار عبقرية وامتياز في الفن أو العلم. (خياط، 2012، ص ص 51-52)

### ثانياً: ميكانيزم التعقل

يعود اول ذكر لمفهوم التعقل الى سنوات السبعينات من خلال أعمال P.Marty (1991) حيث يؤكد في كتابه: *Mentalisation et psychosomatique* أن: التعقل يرتكز على وظيفة ما قبل التصور، فضاء تخيلي مليء بالتمثيلات والوجدانات، تنتقل بسهولة ووفرة في الزمن وفق طبيعة واستخدام الفرد لمكانيزمات الدفاع لذا فنوعيته تختلف من فرد إلى آخر.

ويرى Claude Detychey (2001) أننا في التحليل النفسي عادة ما نشير بمصطلح التعقل الى عمل التفكير على نفسه ليتمكن من ترجمة الاثارة الى تمثيلات قابلة للمشاركة والذي يستلزم عملية رمزية. أي ربط المشاعر بكلمات تعبر عنها والذي نعرفه بمصطلح تمثيل-مشاعر.

(Detychey, 2001, p. 50)

وبالنسبة ل Bergeret (1991): يرجع التعقل للاستخدام العقلي للتخيل، انه إحدى أشكال التخيل التي تتعارض مع التجسد والسلوك. كما يرى Baqué أيضاً أن التعقل هو مفهوم مكتسب منذ الولادة. غير أن امتلاك تعقل جيد ليس ضماناً من كل الأخطار بالنسبة لكل فرد توجد عتبة تعديها يطغى على الآليات التكيفية والدفاعية. لهذا يفهم أن الجلد ليس دائماً مطلقاً، لكن يتأرجح حتماً عبر الزمن، وحتى بتعقل ثري لا يوجد شخص في منأى عن اضطراب عقلي أو سلوكي أو جسدي، بسبب الطبيعة المفاجئة والقوية، الصادمة للوضعيات الوجودية التي يمكن أن يصادفها أي فرد، أيضاً نوعية التعقل وثراء الفضاء التخيلي يجعلنا نتفادى أن تتحول الكلمات الى ألم وتساعد على تكوين جلد أكثر ظرفية ومستمر عند الفرد. التعقل هو أيضاً قدرة الافراد على فهم ذواتهم والآخرين من حولهم أي التعقل ليس توضيح للشخص لعواطفه وأحداثه ولكن هي قدرته على التعرف على حالاته العقلية والآخرين من حوله. أي إعطاء معنى لخب ارحم الصدمية حسب هذه النظرة التعقل يمثل أكثر من ميكانيزم دفاع هو عامل الجلد نفسي الذي يساعد على إعادة التنظيم العقلي وعلى الرغم من الدراسات المتواصلة عن الرجوعية، لا زلنا لم نفهم حقيقة سيروية هذا العمل النفسي خاصة فيما يخص التعقل أو القدرة على التفكير. (Bergeret, 1982, p. 30)

### 3. الارجاعية والصحة النفسية:

من خلال التعريف العام للمكتب الكيبكي للغة الفرنسية (2009) الذي مفاده أنها " القدرة على مواجهة موقف يسبب توتر شديد نظراً لضرره أو خطره، وأيضاً شحذ الهمة للتكيف والعيش بنجاح والنمو بشكل إيجابي على الرغم من هذه الظروف المعاكسة، نستنتج مركبتين أساسيتين لمفهوم الارجاعية هما مواقف صعبة صدمية ثم النمو طبيعياً في المجتمع. النمو السليم يتطلب أن نكون بحالة سليمة، نجد في العديد من التعريفات للشخصية الجلدة ان جودة الحياة مشروط. مثلاً الشخصية الجلدة لديها نظرة إيجابية للأمور وروح الفكاهة ولديها القدرة على التمتع واستراتيجيات صحية للتكيف. تحتم بمطلباتها الجسدية والانفعالية والعقلية والروحية وتشبعها. وهذا يوافق تعريف المنظمة العالمية للصحة، ان الصحة: حالة متكاملة من النواحي الجسدية، العقلية والاجتماعية والذي لا يقتصر فقط على الخلو من المرض أو العجز. من هنا نتبين أن الشخصية الارجاعية هي شخصية بصحة نفسية جيدة، نلاحظ أن الاخصائيون يتحدثون فقط عن الافراد الذين لم يتمكنوا من تطوير الارجاعية على الرغم من حسن صحتهم النفسية. يجب أن نعترف بالدراسات الاكلينيكية الامريكية، حيث هناك أطفال رجوعيين وعلى الرغم من تفوقهم الدراسي الا أنهم يظهرون أعراض اكتئابية. (Manon, 2006, p. 578)

بعض الأطفال وأيضاً بعض الراشدين لديهم صعوبات علائقية، بمعنى يتواصلون مع الآخرين ولكن ليس بكل جوارحهم أي تواصلهم سطحي. (Luthar, 2009, p. 93) ولكي نفهم جيداً لماذا الأفراد الرجوعيون يعيشون جيداً، وفي نفس الظروف يبدي البعض منهم مظاهر اكتئابية، يجب أن ننظر للصحة النفسية من منظورين جودة الحياة وتاريخ المحنات.

نستخلص أنه إذا كنا على ما يرام، هذا لا ينفي وجود ألم ما، المواجهة مع المآسي أمر ضروري. كالتأثيرات السلبية، القلق- المحن، يعيشها على السواء الانسان الرجوعي والمجروح، فقط الرجوعيون يستعيدون عافيتهم أسرع من الآخرين. (Tugade, Fredrickson, & Barrett, 2004, p. 64) وفي تلخيص ما سبق أن الانسان يتصف بالارجاعية لا يعني أنه في منأى عن عوامل الخطر ومنغصات العيش ولكن، عند حلول الخطر يصحح لديه ما يواجهه به بمثابة جهاز مناعة ومقاومة يستخدمه عند اللزوم.

#### 4. مكونات الرجوعية:

لنفهم جيداً إشكالية الصحة النفسية لدى الأفراد الرجوعيين نرجع الى العملية في حد ذاتها، مفهوم المقاومة مهم هنا، يجب أن نكون غير قادرين على استغلال مواردنا مؤقتاً إذا مقاومة الموقف لكي تتمكن بعد ذلك من استيعابه وعقلنة واستدخال ما كان غير مقبول لحد الآن لنتمكن من رجوعية عميقة حيث يتمكن الفرد من النمو، والعيش سوياً، بإتضاح الرؤية، والإحساس بأنه أقوى من ذي قبل. (Anaut, 2008, p. 152)

#### 5. المقاربة النظرية للرجوعية:

##### 1.5 المقاربة السيكو دينامية للرجوعية:

إن دراسة الارجاعية عند اي فرد تستوجب علينا التطرق الى طاقاته الداخلية والخارجية حيث بعض المنابع يستمدتها من المحيط النفس عاطفي وأخرى من المحيط العائلي والخارج عائلي، وكذا بالأخذ بعين الاعتبار القدرات المعرفية والاجتماعية لإرساء الرجوعية، وأخرى تخص الميكانيزمات النفسية وتكوين الشخصية، لمعرفة المكونات الداخلية لتثبيت وتوظيف الرجوعية، كان لزاماً علينا التطرق لاهم المقاربات السيكو دينامية وخاصة الدراسات الخاصة بالتوظيف النفسي عند التعرض للصددمات، ان التوظيف النفسي للرجوعية معقد لأنه محصلة تقاطع عدة أبعاد نفسية واجتماعية نفس عاطفية لذا يمكن تحليله أو دراسته من خلال محورين أساسيين من جهة من خلال الصدمة وكيفية مواجهة الفرد للصددمات، ومن جهة أخرى من خلال ميكانيزمات الدفاع التي تطورها إزاء هذا الموقف، لأنه لا يمكننا الحديث عن الارجاعية فقط لوجود موقف مثير للقلق المتكرر اليومي، لكي نتحدث عن الارجاعية يجب اذا أن يكون قد تعرض الى صدمة أو لموقف صدمي عرض الفرد لخطر فادح، ولدراسته دراسة تحليلية دينامية وجب الاخذ بعين الاعتبار المقاربة المتعددة الابعاد للرجوعية فمن خلال الرؤية السيكو دينامية فإن نموذج توظيف الارجاعية يرتبط بجزء الصدمة، لذا لا يمكن الحديث عن الارجاعية الا إذا تم تعرض الفرد الى خطر محدد بحياته أو تجربة نفسية أو عضوية جد صعبة كذا الصدمة النفسية والتهديد بالخلل النفسي يؤدي الى توظيف الرجوعية.

لذا وجب توضيح معنى مفهوم الصدمة في التحليل النفسي حيث تعرف على أنها: حدث شديد وعنيف، تتبعه موجة إثارة كافية لأحداث فشل عمل ميكانيزمات الدفاع المثمرة عادة الصدمة تنتج حالة من الحيرة والذهول ويمكن أن تسبب على المدى الطويل خلل في الحياة النفسية. وحسب الأبتيمولوجيا الفرويدية فإنه من الناحية النفسية يمكن أن يكون للصدمة أيضاً أصول داخلية، مثلاً عند حدوث صراع داخلي أو يرتبط بانفعالات شديدة بعد فراق مفاجئ لعزير مثلاً. تساءل فرويد عبر أعماله عن اختلاف الاستجابات بين الأفراد إثر تعرضهم للصددمات أو المواقف الصدمية، لأنه ليس الكل يطور عصاب على إثر صدمة من هنا كانت بدايات الإشارة للرجوعية، عندما كتب فرويد قائلًا: الأخطار مشتركة لدى الجميع، هي نفسها عند كل الافراد وما نحتاجه وما لا نملكه هو مؤشر يساعدنا على فهم لماذا فرد يتحمل القلق بالرغم من خصوصيته المتميزة وتوظيف نفسي سوي، أو يجدد جيداً من يخسر في هذه المهمة.

#### 2.5 نظرية التعلق:

اهتمت الدراسات والأبحاث الحديثة بنوعية التعلق ومدى أهميته في تكوين الارجاعية لدى الافراد، ومن بين الدراسات الأولية في هذا الشأن نجد أعمال René Spitz (1968) و John Bowlby (1969) حيث تحدثا عن جروحية الطفل الذي يعتمد كلية على الام أو من ينوب عنها، كما أن العلماء والباحثين يؤكدون أن وجود راشد في حياة الطفل يعطيه حماية ويكون له نموذج لتحديد نوعية أقرانه ويمكنه من الاندماج في المجموعة، طور John Bowlby درس الحرمان الامومي المبكر وتمكن من خلاله نتائج من صياغة نظريته عن التعلق الاولي مركزاً على ملاحظة السلوك التفاعلي أم وطفل، مستندا أيضاً على نتائج أبحاث Harlow و René Spitz فحسب بولي Bowlby، تكوين علاقة متزنة ومستمرة بين الطفل ووليه هي مكون مهم لنموه السليم، وتؤكد هذه النظرية على ان روابط التعلق المبكرة التي خبرها الطفل لديها تأثيرات أساسية في تكوين روابط عاطفية لاحقة، Harvé Bénony (1998) قدم تعريف دقيق للمبادئ الأساسية لنظرية التعلق المبكر نظرية التعلق تعطي أهمية لكيفية تكوين الروابط الأولية: قاعدة حماية جيدة تمكن من تطوير الوظائف المعرفية، حيث الحماية تسمح بزعة الاستقرار، الذي يمكن أن يفهم ويدمج: ويصبح هذا جزء لا يتجزأ من التعلم المعرفي ويؤدي بالفرد الى التطور والاستقلالية،

الملاحظات عبر نظريات التعلق مكن العلماء من إيجاد عدة أنواع من التعلق، باتباع نهج بولي Bowlby درست Mary Ainsworth (1978) حيث درست علاقة الرضع بأمهاتهم، لاحظت كيف أنه من خلال العناية التي توليها الام لرضيعها يمكنه من تكوين قاعدة حماية، ومن خلال إستدخال هذه الحماية يتمكن الطفل من إستثمار بيئته البنوية والاجتماعية وبدون قلق، ومن هنا تم إدراج مصطلح قاعدة الحماية، ثم قامت بعد ذلك Mary Ainsworth بملاحظات وتجارب عن العلاقة أم وطفل لتتوصل الى وجود عدة أنواع من التعلق بين الطفل وأمه:

- التعلق الآمن.
- التعلق الغير آمن-المتجنب.
- التعلق الغير آمن-المتردد.
- التعلق الغير آمن-الغير منظم.

التعلق الآمن والرجوعية: يرى العلماء والباحثون أن الخبرات العلائقية الأولية خاصة مع الام لها دور أساسي في تطوير الرجوعية، خبرات الثلاث سنوات الأولى من عمر الفرد تنتج نمط تعلق يعرف من خلال التفاعل الوالدي أو من ينوب عنهما قد يحفز ويؤثر على بناء وهيكله الارجاعية لاحقا. وهكذا فحسب أعمال Peter Fonagy (1994) قدرت الارجاعية تظهر مرتبطة بتعلق الامن العديد من التوجهات النظرية اليوم تؤكد على أهمية التعلق بمختلف مستوياته في ظهور الارجاعية لدى الافراد، يرى بعض العلماء أيضا أنه يمكننا أن نربط بين الاستعداد الوارثي ونمط التعلق، ولكن السؤال الجوهرى يبقى، هل فعلا للتعلق المبكر دخل في ظهور وهيكله الرجوعية.

ويرى Fonagy بعد بحث معمق ودراسات طولية أن التعلق الآمن في الطفولة المبكرة يرتبط بنمو مبكر للعديد من القدرات ولكفاءات ويتكوى على قدرات تفسيرية ورمزية. مثل: الاستكشاف، واللعب، الذكاء، والقدرة على الكلام ومراقبة الذات والرجوعية، لتسامح، والفضول والتعرف على الذات، وكذا القدرات المعرفية والاجتماعية... الخ

وبعد عن العوامل الجينية الفردية وقع العلاقات البيئية الاجتماعية خاصة العائلية منها يرى Fonagy أن الخطر الجيني يمكن أن يظهر حسب نوعية هذه البيئة العائلية التي يتعرض لها الطفل، حيث يؤكد Fonagy أن المحيط العلائقي المبكر يؤهل الانسان لاكتساب نظام لمعالجة المعلومات يكون بمثابة ميكانيزمات تفسيرية بين شخصية خاصة بقدرات الفرد على تصور الحالة الداخلية المعقدة لذاته وللآخرين. ومن خلال التمييز بين ذاته والآخرين سيتمكن أي الفرد من تكوين علاقات بين شخصية منتجة وتكيفية.

هذا ما يؤهل لبناء الارجاعية وحسب Cyrulnik فإن نمط التعلق لا يكتسب بالضرورة في الطفولة الأولى بل يمكن أن يتطور عبر الحياة.

فتغيرات مهمة في النسق النفسي العاطفي يمكن أن تغير من نمط التعلق، حيث تتركز هذه الفرضية على أن الروابط العاطفية والتعلق في التفاعل دائم مع البيئة والتي هي بدورها دينامية، ومتغيرة ومفتوحة، وفي الاتجاهات الحديثة لم نعد نركز على الصورة الأومومية بالضرورة فالتعلق يمكن أن ينسج من خلال عدة وجوه ثابتة في بيئة الطفل، قد تكون الأم أو الأب أو الإخوة، أعضاء من العائلة، ويمكن أشخاص من خارج العائلة المرية مثلا.

حسب Michael Rutter العلاقات التي يربطها الشخص لاحقا يمكن أن تعوض أو تغطي على الروابط الأولية الفاشلة أو الغير آمنة، بالنسبة Robbie Gilligan (1997) ليس فقط العلاقات العاطفية العائلية تتطور أيضا نمط التعلق يمكن أن يتأثر بالعلاقات الخارج أسرية والشبكات الاجتماعية، يهتم الباحثون اليوم بفرضية مرونة أنماط التعلق على مدى الحياة وهذا ما يمكن ربطه بالتوظيف الجلد الذي هو في حد ذاته بناء دينامي، وحسب Fonagy (2001) حين يلخص: ليس مهم أن يكون التعلق ثابت من السنة الأولى الى المراهقة مروراً بالطفولة، لأن القدرة على التنبؤ تأتي من "MII" وليس من حماية التعلق بالذات. (Anaut, 2008, p. 59)

### 3.5 المقاربة الجينية والرجوعية:

بالنسبة للتوظيف المساهم في تطوير وهيكله الارجاعية وفي أعمالهم، المختصون في علم الجينات لا يتحدثون عن برنامج جيني ثابت ومتخصص لأن ضغوط البيئة تغير في شريط ADN حيث من خلال نفس الأبيدية الوراثية المحيط يوجه آلاف القصص المختلفة. أغلب المختصين في علم الجينات اليوم أصبحوا يعملون من خلال التطورات اللاجينية والتي تمكن من تغيير التعبير عن مرض وراثي من خلال التأثير على الوسط. كمثال فرضى متلازمة داون كانوا منذ 20 سنة يموتون في سن مبكرة. ولكن الآن بعد الاهتمام الذي أصبحوا يحظون به والظروف المناسبة لحالاتهم أصبحوا يتمدرسون ويمكنهم العيش سبعون سنة، أيضا هناك العديد من المصابين بأمراض وراثية والذين تم التكفل وجد أنهم يطورون تعلق آمن ومعاش ثقافي أعلى من الغالبية نظرا لما يتلقونه من دعم ورعاية لخصوصيتهم المرضية. نفس الظاهرة لوحظت بالنسبة للأرض العصبية التطورية الخطيرة حيث أن منظمة الصحة العالمية ترصد 1% من الفصامين مهما تكن الثقافة السائدة، هذا الرقم

لصالح العامل الوراثي ولكن لا يلغي التركيبة الثقافية، فعند المجتمعات المهاجرة مثلا نلاحظ 3%-5% من الفصامين حسب الثقافة المستقبلية. فاذا كان المرض يرجع الى العامل الوراثي هذا لا يلغي التدخل على مستوى الظروف التربوية والثقافية للتخفيف من تعبيراته وأعراضه الذهانية. (Anaut, 2008, pp. 8-9)

**4.5. المقاربة النسقية والارجاعية:**

• **نموذج النظام الإيكولوجي والرجوعية:**

يرى Cyrulnik et Anaut أن النموذج الإيكولوجي الذي هو تيار حديث النشأة والذي تبنى من خلال أعمال Bronfenbrenner (1981) حين بين أن نوعية الارجاعية هي عملية دينامية أين التفاعل بين الفرد والمحيط متبادل مما يساعد على التكيف بالرغم من الشدة من خلال هذا التوجه نتعرف على الدور الذي تلعبه البيئة والمحيط المعتاد العائلة، المدرسة، والمحيط الاجتماعي على تشجيع وتطوير الارجاعية لدى الفرد، بما أنها أي البيئة هي المحيط الذي يرى فيه الطفل ويكبر ومن خلالها يتمكن من اكتشاف العوامل المساعدة على هذا البناء، يستخدم Cyrulnik (2002) مصطلح نسج الحياة كتمثيل عقلي يتماشى مع تطوير إستراتيجيات الارجاعية وإعادة بناء النسيج المجتمعي، الارجاعية ليست ثابتة وكاملة بل تعتمد على التوازن الدينامي للعوامل الشخصية والعائلية والاجتماعية وأيضاً مراحل العمر وبحدود معينة للتكيف. ويرى Bronfenbrenner في هذا النموذج الخاص بعلم النفس البيئي والذي يوضح المنافع البيئية والهياكل الاجتماعية من خلال تكيف نموذج النظام البيئي بأنه يجب فهم تطور الشخص في نظام بيئي معقد، من النظام المصغر إلى النظام الماكرو، حيث أن كل نظام يتم تصميمه كوحدة تواصل مع نظام أكبر ومنظم أكثر منه، وبالتالي، فإن النظام الميكروي في اتصال مع جميع الأنظمة الأخرى أكبر منه كلما كان النظام قريب من الآخر كلما ازدت تفاعلاتهما، وبالتالي، فإن النظام الميكروي يتفاعل بشكل مباشر مع النظام المتوسط أكثر منه مع النظام الخارجي، هذا لا يعني أن النظام الخارجي لا يمكنه التأثير فيه ولكن سيكون أقل، وتوضع هذه المستويات السوسيو إيكولوجية المختلفة في منظور معاملات يدعو إلى تبادلية فردية مع بيئة قوية للغاية وإذا ما أسقطنا هذه النظم على الفرد وسط المجتمع نلاحظ:

- النظام الميكروي Le microsystem: إنه البيئة المباشرة للفرد.
- النظام المتوسط Le mésosystème: هذه البيئة تتكون من مكانين أو أكثر حيث يستثمر الفرد قدراً كبيراً من الوقت. هذه الأماكن تأتي عادة من microsystem.
- النظام الخارجي L'exosystème: يأخذ في الاعتبار العوامل الخارجية التي تؤثر بشكل مباشر أو أكثر على الفرد. هذه هي المجموعة الواسعة من الهياكل الاجتماعية أو التنظيمية التي تحكم الأنظمة الأخرى التي سبق ذكرها.
- نظام الماكرو Le macrosystème: فهو يشمل النظام الأساسي، مع التركيز على القيم الاجتماعية والثقافية التي تؤثر على السلوك والمواقف. إنها صياغة نفسية قريبة من المنظومة الاجتماعية للنظام الأيديولوجي.
- نظام الزماني Le chronosystème: إنه تذكير بالبعد الزمني لأي بيئة بشرية من حيث البيئة الزمنية المرتبطة بالمتغيرات الاجتماعية والثقافية. وهكذا، يشتمل نظام الزماني على روابط الانتقال المعيارية الانتقال من فترة من الوجود إلى آخر يتأثر جزئياً بالنظم الأخرى.

ومن المرجح أن تشجع هذه النظم المختلفة على فهم أفضل لسلوكيات ومواقف الأفراد، ولكن أيضاً لفهم ما يمكن أن يعزز أو يعيق رفاههم النفسي.

**5.5. مقارنة عوامل الحماية:** حسب Michael Rutter (1990) عوامل الحماية تغير ردت الفعل إزاء الموقف الذي يشكل خطر بحيث تخفض من الأثر السلبي وعواقبه، وأيضاً تساهم في خفض وقع الحنة على تكيف الفرد، تقريباً كما تحميها الوسادة الهوائية عند الحادث، درس العديد من العلماء عوامل الحماية المؤسسة للرجوعية أمثال Emmy womenr التي وضعت من بين عوامل الحماية الداخلية:

- القدرة على حل المشكلات.

- معرفة الذات.

- الحكم الذاتي.

- تقدير الذات الثقة.

- الغيرية الاجتماعية.

- القدرة على إيجاد مساند أو مساندين في المحيط العائلي او خارجه.

ويرى من ناحيتهما Garnezy et Masten (2013) ومن خلال ملاحظة عائلات محرومة، ومن العديد من أعمالهما استخلصا أن الارجاعية تؤسس وتستند على ثلاثة ميادين لعوامل الحماية هي: العوامل الفردية، العوامل الاسرية، العوامل الخارجية كما هي مفصلة بالجدول التالي:

جدول رقم (01) يمثل: الأقطاب الثلاثة للحماية التي تمهياً للرجوعية:

العوامل الفردية	العوامل الاسرية	العوامل الخارج أسرية
مزاج نشط، رقيق، حنان. السن (مرحلة الشباب). مقدار ذكاء مرتفع مستوى. قدرات معرفية حسن. كفاءة ذاتية وتقدير للذات مرتفع. مهارات اجتماعية. الوعي بالعلاقات بين الشخصية (قريبة من الذكاء الاجتماعي). مشاعر التعاطف.	دفع والدي ومساندة من طرف الولي. العلاقة أب وابن حسنة. الكفاية العلائقية التعليمية. تناغم بين الوالدين (تفاهم).	شبكة المساندة الاجتماعية (الأقران، الحي، الانتماء الأيديولوجي الديني، الروحي). خبرات النجاح المدرسي (أو أي نجاحات مميزة).

(Anaut, 2008, p. 71)

حسب Michel Rotter هذه الأقطاب الثلاثة للحماية تهيأ للرجوعية وتطورها:

- تقدير الذات.
- الشعور بالكفاءة الذاتية.
- فتح آفاق جديدة للفرد.

وحسب Gilligan فان تطور وظيفة الارجاعية لدى الفرد تتكون على قاعدة متكونة من ثلاث مجالات هي كالتالي:

- الشعور أن لديه قاعدة امن داخلي.
- تقدير الذات.
- الشعور بالفعالية الذاتية.

(Anaut, 2008, pp. 72-73)

كما كانت الدراسات حول عوامل الخطر فإن عوامل الحماية أيضا تنتج في آن واحد عن متغيرات جينية وأساسية، وامكانيات وخصائص شخصية الفرد، وأيضا بمساندة من طرف العائلة ومن خارجها وكذا توفر امكانية الوصول ونوعية الدعم الاجتماعي والمجتمعي.

### نموذج Casita:

يمكن إدراج مكونات الارجاعية تحت بعدين اثنين في ارتباطها بعوامل الحماية:

بعد أفقي يختص بالبيئة المحيطة أين يدعم الارجاعية للفرد بالجلد الذي تظهره الاسرة هذا الاخير الذي يدعم الارجاعية الجموعية والمجتمعية، كلها كأغشية مترابطة تلف الفرد وتحميه، أين تؤثر الصدمة بأكثر قوة كلما مست الغلاف الاكثر قربا بالنسبة للفرد، وبعد عمودي يمثله نموذج Casita، يختص بالفرد ويهتم بالحاجيات الأساسية الضرورية للجسم، ويمتد ليشمل المجال العاطفي والمجال الروحي.

حيث أن Casita عبارة عن نموذج وضعه Vanistendael لتوضيح مكونات الرجوعية، وهي كلمة اسبانية تعني البيت الصغير، حيث يوفر هذا النموذج تركيبا نظريا لعناصر يمكن اعتبارها كعلائمة لتنشيط حركية الرجوعية، وهو عبارة عن رمز صلب يدعو للتفكير في البيت ويذكر بالروابط للوصول للمعنى، بحيث كل غرفة من البيت الصغير تتصل بالأخرى لتبين العلاقات التي يمكن أن تكون بين مختلف مجالاتها. وترتكز على عاملين أساسيين هما:

- التقبل الاساسي.
- القدرة على إيجاد المعنى.

ويقترَب نموذج Casita من هرم الحاجات الأساسية Maslow وفيما يلي عرض مفصل لما جاء في نموذج Vanistendael حول مكونات الارجاعية ابتداء من قاعدة البيت وركيزتها:

- الحاجات الاساسية للجسد: التنفس، الأكل، الشرب، النوم، المأوى عن البرد والحر، الملابس، العلاجات القاعدية.
- التقبل الأساسي للفرد: يشكل التقبل الأساسي للفرد حجر الزاوية في نموذج Casita إذ أن إشباع الحاجات المادية لا يكفي وحده ليسمح ببناء الارجاعية ضد الصدمات التي تمس الجهاز النفسي.

- إن الدفاء والحب يسمحان في البدء ببناء الثقة في الآخر كما اقترح Delage حول هذا المصطلح مفهوم الغلاف النفسي فرضيته أنه في كل مرة يواجه فيها الفرد وضعيته شدة ينشط نظام التعلق الذي تشكل في بداية النمو.
- بينما تحدث Cyrulnik عن فقاوعة حسية يقدمها المحيط الأسري، هذه الأخيرة إن تشكلت جيدا بواسطة روتين عاطفي وسلوكي تسمح للطفل بالنمو على مدى بناء الحسية اذا لم يوضع هذا الروتين في الأشهر الأولى لا يستطيع الطفل تنظيم نفسه.
- شبكة الاتصالات: العامل الثاني المؤسس للرجوعية حسب نموذج Casita هو نوع شبكة اتصالات الفرد ، سواء كانت العائلة الأصدقاء، الجيران أو السند الاجتماعي، بما أن الارجاعية ظاهرة مركبة ولا تبني من الداخل فقط بل هو ثمرة النسيج بين ما يقدمه الفرد لنفسه وما يساعده من البيئة الخارجية، فمثلا عند الطفل المحروم أو المتعرض لسوء المعاملة، يمكن للمحيط أن يأخذ دور الأسرة الغائبة أو غير المتميزة بالكفاءة، ولكن يجب التذكير أنه من بين هذه العوامل البين شخصية البناء يوجد عامل أساسي ألا وهو تقبل الشخص المحروم من طرف المحيط.
- إمكانية اكتشاف المعنى: والذي عادة ما يتم التوصل إليه من خلال الإيمان والمعتقد الديني، أو بدرجة ثانية من خلال وجود مشاريع حياتية أخرى، وعند الكثير من الناس يتعلق المعنى بالإحساس أن الآخرين بحاجة إليهم، و يرى Manciaux (2004): بأنه طالما يكون لدى الفرد إحساسا بتوفر رابط إيجابي بين حياته وبين الاتجاه الغالب للحياة التي تحيط به وان كان على المستوى اللاشعوري، فإن ذلك سيعطي معنى لحياته، وكما يقول Lecomte: الارجاعية مؤسسة على الرابط، فأحدهم سيكون المدعم للرجوعية، أما المعنى فإن الفرد الرجوعي بذاته هو من يثيره ويعمل عليه. وللإشارة، يعتبر Vanistendael أول من أشار إلى المعنى و الرابط، كما اشارت إليه أيضا الأخصائية النفسانية السويسرية Catipovic-Perret التي اهتمت بالمراهقين الذين حاولوا الانتحار، وهذا قبل أن تعرف الرجوعية، و اشارت إلى أن احتمال الانتحار منخفض إذا كان للمراهق رابط ومعنى، وأنه في غياب هذين العنصرين يرتفع خطر الانتحار. وجاء بعد ذلك Cyrulnik ليؤكد على مفهومي المعنى والرابط اللذين يشكلان في العديد من الحالات أساس الارجاعية ليضيف Lecomte مفهوما ثالثا وهو القانون.
- تقدير الذات: في الطابق الثالث من Casita توجد مختلف سمات الشخصية، في مقدمتها تقدير الذات فالشخص المحروم يحس بالنقص لأنه في وضعية ضحية فاشلة، أو يظن أنه مدنس بسبب الاعتداء، كما أن تقبل الآخرين، احترامهم ومساندتهم له تساعده ليحقق ثقته بذاته ويعزز قيمته الشخصية كما تحدث Wolin عن الشهامة كإحساس يطوره الأفراد الذين ينجحون من الموت، وقاما بتحديد 4 تصرفات يسلكها الأفراد المحيطون بالضحية لتغذية تقدير الذات وهي:
  - الإيمان بالضحية وبمستقبلها.
  - الاهتمام الظاهر بالتجربة التي مرت ووصفها باحت ارم ودون إصدار الأحكام.
  - الاهتمام بقوى وموارد الشخص عوضا عن الاهتمام بالصعوبات.
  - الانتباه لأهم تفاصيل نقاط المعاناة في التجربة الحزينة.
  - القدرات والكفاءات المختلفة: معايشة صدمة خطيرة تستلزم قدرات تكيفية وتطويرية مهمة، ولهذا تتموقع القدرات والكفاءات في نموذج Casita في الوسط، يتمتع الانسان بالعديد من المزايا التي تختلف من حيث القوة والتنوع من فرد لآخر، وتعد القدرات العلائقية من أهمها فالشخص الذي يستطيع التواصل بسهولة يستطيع طلب المساعدة بسهولة.
  - الفكاهة: تختلف الفكاهة عن التهكم والسخرية، تسمح هذه المهارة بتعديل المناخ ومحاربة الحزن وتجاوز الإحساس بأنه ضحية وهذا ما وضحه Vanistendael et Lecomte في قولهما أن الفكاهة ليست هروبا من الواقع وانما تجلب نوع من التراجع واحساس بالراحة المفيدة ويعد مؤشرا على التكيف الإيجابي.
  - تجارب أخرى: إذ يمثل سقف Casita الانفتاح على تجارب أخرى واطاحة الفرصة لاكتشافها.

(شرفي م.، 2017، ص ص 132-138)

### 6.5. الارجاعية وسمات الشخصية:

مقاربة دراسة الارجاعية كسمة شخصية تشبه الى حد موازي الدراسات عن الضغوط أين ظهر أنا-الارجاعية ego-resilience والذي يعني عند فرد ما: القدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة والطوارئ البيئية، هذا يستدعي رجوعية كبيرة للتكيف والذي يمر حتما بتحليل مستوى التقارب بين متطلبات الموقف والامكانيات السلوكية والاستخدام بحكمة للسجل المتوفر لاستراتيجيات حل المشاكل، هذا التعريف فيه تقارب مع المقاربات التي ترجع اختلاف الاستجابات السلوكية الى عوامل جينية، نفس اتجاه الارجاعية كما بينته Emmy womenr لدى أطفال تعرضوا الى حرمان مبكر ومسار حياة صعبة، مركزين على تحليل

دور العوامل الذاتية، لم تتمكن الأبحاث والدراسات العلمية من إثبات وجود سمة شخصية خاصة بالرجوعية، إذ استحالة وجود شخصية جلدة لحد الآن، هذا يساهم في تدعيم فرضية وجود إمكانية للرجوعية لدى كل الافراد مهما تكن نوعية شخصيتهم. هذا لا يمنع أن هناك سمات معينة تسهل سيرورة عمل الرجوعية. كالاجتماعية، الانبساطية والتعاطف... الخ (Werner, 1995, pp. 81-84)

يركز العلماء على عوامل الحماية التي تساهم في عمل الارجاعية لدى الافراد وجماعات الافراد، وليس الهدف هو البحث عن سمة محددة لشخصية رجوعية ولكن هو دراسة الخصائص الثابتة للشخصية التي بإمكانها هيكلية ونسج عمل الرجوعية، من هنا يمكننا تحديد مجموعة من السمات التي قد يكون لها دور الحماية ضد مصاعب واختبارات الحياة ومن ثمة المساهمة في تطوير وهيكلية الرجوعية. من بين السمات ذات العلاقة بالارجاعية حدد كل Steven J. Wolin et Sybil Wolin (1993) سبعة خصائص التي تتوفر بدرجات مختلفة عند التوظيف الرجوعي، وتكوين ذات رجوعية، مركبة من الخصائص التالية:

- التبصر.
- الاستقلالية.
- مهارة ربط العلاقات.
- المبادرة.
- الابداع.
- المرح.
- الأخلاق.

والتي تتوفر عند النضج لدى الراشد، كما يرى هؤلاء العلماء أنه بعد المرور بمراحل النمو من الطفولة الى نهاية المراهقة، هذه العوامل السبع السالفة الذكر التي تساهم في عمل الارجاعية لدى الافراد تشكل قوى تساعد الكائن البشري على الحماية والتكيف مقابل المحن التي قد تلحق به خلال مراحل عمره اللاحقة من الرشد الى الشيخوخة. (Steven J & Sybil, 1993, pp. 60-61)

#### 6. الارجاعية وعمل الحداد:

الإحساس بالفقد متنوع باللقاء أو النجاح بعد الفشل يشكل انتعاش للتعلق، فعندما يكون المرء واثق من أنه محبوب كل يوم وبنفس الطريقة هذا يقوي لديه الإحساس بالحماية العاطفية مما يحد من الفرد يعيش في سعادة وتكيف بالرغم من المشقة. (Boris , 2022, p. 54)

جاء في مقال نشر بالفيدرالية الأوروبية العيش بدون حداد أن لعمل الحداد علاقة مع الارجاعية من حيث وجود الصدمة النفسية بداية ومن حيث مواجهتها نتيجة، كالاها ظاهرة مرئية لعمل داخلي، إنها علاقة خاصة جدا بغموضها وتناقضها وتعاكسها أحيانا، تناظرية مع أوجه تشابه واختلاف، وأكبر تشابه بينهما هو أن كلاهما يهدف للتكيف مع وضع صعب، إن لم نقل صعبا للغاية، ولا مفر منه على الأقل قبل فترة طويلة، كل يواجه الصدمة بطريقة مغايرة وذلك بفضل تجنيد موارده الخاصة والداخلية واختلافها باختلاف نوعية الصدمة ولا يمكن تجاهل أن هناك من لا يمكنه المواجهة والتكيف ويعايش الحزن طويلا، على السواء أثناء عمل الحداد وبناء الارجاعية دور الاسرة يبقى أساسيا للتكيف مع الوضع الجديد، من خلال دراسة قام بها Rutter عن النمو لدى أطفال آبائهم مرضى عقليين وجد أن البعض يتمكنون من العيش بدون اختلالات بشرطين: عندما يفهمون أن وليهم مريض، و عندما يجدون السند عبر عائلة أخرى تتكفل بهم، كذلك الارجاعية وعمل الحداد كلاهما لديهما ملمح دينامي حيث أنهما قابلان للتطور والتغير عبر الزمن، ويحتاج الفرد الى المساندة الخارجية من خلال أفراد يسميهم Boris بوصايا الارجاعية ويسميهم Hanus باللقاء حيث الطفل الرجوعي يلتقي لاحقا براشد يفهمه دون أن يسرد معاناته يسانده ويقومه ويثق به وبقدراته ويساعده على استعادة ثقته بنفسه واعادة بناء عالمه الخارجي يعيد له الثقة في وجود راشدين طبيين يهتمون به ويحيون تقديره لذاته والثقة بقدراته. كما أن المفهوم، يؤديان الى ثورة غضب ومشاعر عدم الانصاف بالنسبة للأطفال المعرضين للصدمة هذه العواطف عادة قوية حتى وان لم تظهر جليا في البداية. هؤلاء لديهم طاقة كبيرة لأنهم يحملون تحدي للآخر وللحياة معا. وهنا نتساءل كيف لأطفال يحملون كل هذه المشاعر السلبية والمؤلمة أن يتحولوا الى أطفال رجوعيين.

بالرجوع الى أسس بناء الارجاعية حسب Rutter حيث يتحدث عن تقدير الذات والثقة بالقدرات لدى الفرد وعلاقات عاطفية مطمئنة، ومتزنة، وخبرات نجاح، وبالنسبة لتقدير الذات فهو يرسخ من خلال اهتمام وعرفان الوالدين أو من ينوب عنهما وتقديرهما وحبهما، مما يدل فعلا أن لهذا الطفل قيمة. ما يشعر به هو حقيقة مجسدة وواقعية وبهذا تتأسس الارجاعية ويكون بمقدور الفرد أن يعي حداده، لأن وجود علاقات أولية إيجابية مقبولة تسبق الاختلالات اللاحقة تكون بمثابة الذخائر تقويه ويستخدمها عند اللزوم. (Michael , 2002, pp. 119-237)

هناك فروق بين عمل الحداد والارجاعية حيث أن في الأول الفرد يعايش الألم الذي يحتاج للتعبير عنه ليتخطى المرحلة على العكس ففي الثاني حيث أن الفرد يضع الألم جانبا بخدره لا يتقبله وينكره، الفرد الرجوعي لا ينكر الصدمة في حد ذاتها ولكن ينكر مفهومها النفسي.

أيضا الحداد عادة يطلب المساعدة ويتقبلها على عكس الرجوعي الذي يعتمد على نفسه بالدرجة الأولى يستفيد من اللقاءات أو وصايا الارجاعية فهو يحتاج لتقدير الآخرين ولكن لا يطلب المساعدة بخصوص الصدمة الحالية بل يعتمد على نفسه، وفي نفس السياق يشير Cyrulnik إلى أنه من بين خمسة وثلاثين كاتباً تم تقديمهم في الكتب المدرسية في الأدب الفرنسي، تعرض سبعة عشر شخصاً لفقدان مبكر لأحد الآباء على الأقل، لذا فالفرد الجلد غالباً ما يكون قد عمل حداد سابقاً أو قادر على ذلك. (Shankland R. , 2014, p. 26)

من خلال مقال Helene Romano انطلاقا من عملية متابعة لـ 51 حالة للرضع والأطفال الصغار المصدومين إثر وفاة قريب الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 11 شهرا إلى 5 سنوات، وقت التكفل والمتابعة لمدة سنتين حاول الخبراء عرض العوامل الفردية والأسرية والبيئية، التي تشكل مصادر للرجوعية لدى الأطفال والرضع وتمكنهم من النمو السليم، وذلك لخصوصية الحزن لدى الطفل الصغير حيث المعاناة المؤلمة الناجمة عن الفقدان أي الحداد قد تم التطرق إليها منذ العديد من السنوات غير أنها لا تزال غير معروفة، ولا تزال تثير الكثير من الجدل، خاصة اذا ما تعلق الامر بالطفل أو الرضيع أين نلاحظ اللامبالاة و التقليل من أهمية الأمر ، بل و حتى رفض واقع معاناة هذه الفئة، وذلك بحجة أن الأطفال الصغار لا يكتثرون لما يجري حولهم، إنهم صغار جدا عن الإدراك والفهم، إنهم ينسون بسهولة مع مرور السنين، إنهم يحولون كل شيء إلى اللعب إنهم لا يحتفظون بأي آثار أليمة داخل ذكرتهم، إنهم لا يمتلكون الدراية الكافية أو الوعي الذاتي، إنه ليس لديهم تصور كاف حول موضوع الوفاة مثلا، وبالتالي فهم لا يخشون الموت، حيث يعتبرونها مرحلة انتقالية ولا يمكنهم الربط بين الحدث الأليم والموت الحقيقي الذي لا رجعة فيه. بالنسبة للبعض، طالما أن الطفل لا يمتلك على قدر كاف من التنظيم وأنه ليس في مستوى إدراك تصور العيش مستقلا بمفرده مقابل الحماية الأبوية، وطالما أنه ليس لديه القدرة المعرفية الكافية لإدراك معنى الموت، فإنه لا يمكن أن يكون في حالة حداد، بل وحتى عاجزا عن القيام بمظاهر الحزن. قد يرى البعض من أن مرجعية مصطلح الارجاعية يستخدم لتبرير هذا الرفض أمام حقيقة الحزن لدى الطفل وكذا عواقبه، إن عملية التفسير السريع لهذا المصطلح يؤدي أيضا إلى العديد من الانحرافات التي تتمثل في الاعتقاد بأن الطفل يمكن أن يتحمل كل شيء لأنه يتصف بالرجوعية. زيادة على ذلك، فإن مجرد قراءة المساهمات المقدمة عن مفهوم مصطلح الارجاعية وجد أنه أمام وجود حدث أليم، فإن الطفل يكون قادرا على تعبئة طاقاته الداخلية اعتمادا على النوعية السابقة للعمليات التفاعلية مع محيطه وكذا تلك المتتالية للحدث، وبعبارة أخرى، إذا تمكن الطفل الرضيع المصدوم من الاستفادة مسبقا من التفاعلات المطمئنة والمهيكلية، وإذا تم التكفل به بسرعة من قبل الكبار الذين بإمكانهم أن يكونوا أوصياء على عملية نمو الطفل فإن عواقب الصدمة النفسية ستكون أقل مما لو وجد الطفل نفسه وحيدا في هذا العالم وبدون موارد سابقة. يرى البعض أن صدمة الفقدان لا يحدها سن معين، وأن الطفل الصغير غير محمي، إن حقيقة الحزن لدى الطفل الصغير هي مؤكدة، كما يرى المختصون في مجال التكفل بالأطفال الصغار وكذا الرضع المعرضين لحالات الوفاة والأحزان المؤلمة، أن الحزن المبكر هو في حد ذاته مؤلم بسبب الضعف النفسي للأطفال الصغار. إن غياب الآليات العاطفية الفاعلة وعدم النضج العصبي لا يسمحان له بإعداد عواقب الوفاة، كما لو أنه طفل كبير أو شخص بالغ. إن الطفل الصغير يفقد بشكل أليم كل المعالم التي تمهيك له أسلوب تفاعله مع العالم الخارجي، فوفاة أحد الأقارب في مرحلة الطفولة المبكرة من 0 إلى سنتين 2 تبدو أنها أكثر إتلافا للناحية النفسية للطفل، حيث أن هذا الأخير غير قادر على إدراك معنى هذا الفقدان. وفاة أحد الأقارب أو أكثر يمثل الفقدان الأليم للشعور بالأمان والعيش المريح، إن مثل هذه الكارثة الجوهرية يدخله في حالة من العذاب النفسي الذي يؤدي إلى انقطاع استمرارية الشعور بنفسه، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى رهن مستقبله بصفة دائمة. مما يؤدي إلى قطع وتيرة معيشته اليومية ويحطم ثقته في الحياة وثقته في الشخصيات المتعلقة بها. إن الأطفال الرضع والأطفال الصغار ليس لديهم تصور كامل لمعنى الموت، ولكنهم سرعان ما سيكون لديهم تصور عن الحياة.

يجب إضافة لهذه النتائج المباشرة للوفاة النتائج غير المباشرة، بمعنى التأثيرات على الأطفال، والتي تتمثل في الصدمات الأليمة الأبوية أو الجماعية. فإن الأطفال، وعلى وجه الخصوص، الأصغر سنا، هم في حاجة ماسة لكي يعيشوا ويكبروا بمساعدة آبائهم أو من ينوبون عنهم. إن توفير الشخص الذي سيحل محل الفقيد يمكن إلى أقصى درجة من التقليل من الاضطرابات، وذلك بتوفير الاستمرارية المادية والعاطفية الضرورييتين للطفل في أسرع وقت ممكن، لتفادي التداعيات النفسية الأليمة المترتبة عن حالة الوفاة وتدعم بالعوامل الداخلية مستوى النمو النفسي العاطفي والمعرفي للطفل لحظة الوفاة، وكذا العوامل الخارجية: نوع الوفاة، وجود أو عدم وجود الطفل أثناء لحظة الوفاة وردود أفعال الأقارب عامة تجاهه. إن الاعراض الظاهرة التي نجدها لدى الأطفال الصغار هي عبارة عن حالات من الإحباط وهدهو المزاج والتراجع العاطفي والحزن العميق وانعدام الرغبة في اللعب واضطرابات النوم، الغضب المعبر عنه بسلوكيات عنيفة ولو لفترات قصيرة، مع الشخصيات الجديدة التي سيرتبط بها وكذا تراجع سير النمو. يمكن أن تتفاقم بفعل اضطرابات ما بعد الصدمة، حينما يكون الطفل الصغير حاضرا أمام وفاة أحد أقاربه مباشرة. حيث خصوصية هذه الاضطرابات عند الأطفال الصغار تكمن في، كونها قد تكون لمدة قصيرة، كما يمكن أن تتجدد بطريقة عرضية وتتخللها فترات

انقطاع عندما يستثمر الطفل الصغير العالم الخارجي كما لو أن شيئاً لم يحدث. اقترح العالم Wolfenstrain مصطلح "المدى القصير للحزن" من أجل وصف فترات الراحة هذه، والتي يفسرها بسبب عدم قدرة الأطفال الصغار على تحمل الألم لفترة طويلة جداً. من بين إحدى المشاكل التي كثيراً ما تطرح عند التكفل بالرضع، أنهم ليست لديهم القدرة على التكلم؛ غير أن هذا لا يعني أنهم لا يستطيعون التواصل. تسمح عملية الاهتمام الذي يحظى به الأطفال الصغار الحزينين بالكشف عن حجم الصدمة وحدة الحزن، ومن بين إحدى المصادر الرئيسية للرجوعية هي: وعي المكلفون بالتكفل بالطفل المصدوم بمظاهر ما بعد الصدمة والأهم هو الاعتراف بأن هناك حالة حزن وحداد لمساعدة والطفل والأخذ بيده. وعدم إنكار اضطرابات الطفل، في حين أن الطفل الصغير لديه أزمة رد الفعل تجاه الاضطرابات النفسية. إن متابعة الأطفال والكبار الذين فقدوا عزيزاً حينما كانوا أطفالاً رضع، يؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك، كم أن هذه الآثار ضرورية وقيمة من أجل تحمل غياب والديهم وتكوين الارجاعية لديهم. (Anaut & Cyrulnik, 2014, p. 53)

إن الشخص السند، الموجه، الذي يأخذ بيد المصدوم أو الجريح ليعيده إلى مسار نمو معدل، يعتبر مثلاً مربية تقدم له جملة تحمل أمل مدرب رياضة يبين له أن العلاقات الإنسانية يمكنها أن تكون سهلة، رجل دين غير وجه المعاناة... إلخ، كل ما يسمح بإعادة عقد رابط اجتماعي، سمح بتقوية الصورة التي قام بها الجريح عن نفسه، من جهته Lemay يساند دور الشبكة الاجتماعية في دعم الجريح، حيث يعتبر أن الفرد وسط المحن، أو الظلم، والعزل، إذا تمكن من الاقتراب في لحظة معينة من حياته بشخص، أو شبكة مساعدة التي تشكل نقاط استناد تسمح بالاستمرار في الحياة، تمكنه حقيقة من التعلق بأشخاص يؤمنون به، كلما أمكنه مواجهة اضطراب وجوده.

وعملية التعلق هذه لا تخص الأطفال لوحدهم، فهي موجودة لديهم كما توجد لدى الراشدين، كما أكده Lemay هذا يعني: أن إمكانية التعلق بإنسان مشارك وجدانيا ليست خاصة بالطفولة الصغرى، إنما تبقى استعداد دائم رغم كل التناقضات الوجدانية، والصعوبات الظاهرة لإدماج عاطفة سيئة التقدير، أو حركات الرفض المتعاقبة. (ميروج، 2010، ص ص 146-147)

كما يشير Detychey et Lighzzolo إلى أن دور وصي الارجاعية يتمثل في إعادة بناء الأنا الأعلى والانا المثالي للفرد، هذه الأركان التي أصيبت في اثناء الحدث الصدمي بحيث يساعد ذلك على التماهي مع نماذج جديدة وأهداف جديدة يقوم باستدخال عدد من القيم. كما يؤكد الباحثان أن وصي الجلد ليس بالضرورة هو وصي التطور والذي يمثله الآباء أو النماذج الأبوية، قد يكون من فرد أو نموذج متوفر في بيئة الفرد ومحيطه يكون سند للشخص عندما يفشل الآباء في ذلك. (Joëlle & Claude, 2004, p. 13)

وقد اقترح Theis, Lighzzolo, Marchal أربع خصائص لوصي الجلد:

- أن تكون لديه القدرة على التواصل والارسال والابلاغ لما يريد.
- أن يكون لديه القدرة على ملئ الفراغ والنقص، وفي نفس الوقت يعطي مساحة للاستقلالية.
- أن يكون متفرغ، يستند اليه الفرد وألا يمتاز بالصلابة.
- أن يكون نموذج مثاليا بما دون إفراط، بناء للفرد المصدوم.

(شربي م.، 2017، ص 163)

#### 7. معايير وتقييم الرجوعية:

يرى S.Vanistandael أن الارجاعية كتوظيف لقدرة أو سيورة قابلة للتكميم، ولما لا للتحفيز، وبعد دراسات قام بها Koufman وشركاؤه، تمكن على إثرها، من إثبات أنه يمكن إستعمال معيارين لتحديد رجوعية فرد ما أو مجموعة أفراد، كما أنهم ميزوا بين زمنين:

أ. زمن أول من مقاومة الإختلال الذي تولده الصدمة.

ب. زمن ثان من دمج الصدمة، ووضع سيورة إعادة البناء.

أما بالنسبة ل R.Lighezzolo et C.de Tychey في مقال لهما قالوا " أنه من المهم نقل مصطلح الجلد من وضعية مفهوم غامض إلى مفهوم إجرائي ضمن البحث العيادي شرط مصداقيته في الحقل العلمي وفق العالمان، يمكن تعريف معايير إجرائية، استئناف النمو وفق محورين: المعايير الخارجية أي وجود تكيف مع الواقع الخارجي والمعايير الداخلية، أي توفر توازن في التوظيف النفسي الداخلي والذي يعبر عن وجود تكيف للأنا، واختيار هذه المعايير يخضع لذاتية الباحث الذي يمكنه استخلاصها مما يمكنه ملاحظته من مظاهر الارجاعية عند الفرد. وحسب Manciaux يختلف هذا التظاهر للجلد من ثقافة لأخرى، وفي هذا الصدد يمكن قياس الارجاعية ببعض المقاييس السيكومترية، واختبار الرورشاخ وذلك حسب ما يراه الباحث مناسب لبحثه وما يهدف له. (شرشاري، 2012، ص 38)

**8. التطبيقات العيادية للرجوعية:**

من بين الأسئلة المهمة التي تتبادر لذهن الباحث في مجال العلوم الاجتماعية عموماً وعلم النفس العيادي خاصة هي ما أهمية أو حدود أو إمكانية تطبيق نتائج بحثه على الميدان وعلى أرض الواقع العيادي، لذا من الطبيعي التساؤل عن مآل وتطبيقات الدراسات والنظريات، أيضاً يجب الأخذ بعين الاعتبار التقارير والملاحظات المتعلقة بالتطبيق العيادي، لنتمكن بالمقابل من تطوير الأبحاث والدراسات واثراء المجال النظري بخصوص نموذج الرجوعية، هذا يقودنا الى التحدث عن فوائد وأيضاً الحدود الفاصلة لتطبيقات الارجاعية على الميدان كذا بحث المعايير الأخلاقية والحوكمة.

أ. من النظرية الى تطبيق الرجوعية: من بين أهداف البحث فيما يخص نموذج الرجوعية، ليس فقط دراسة الارجاعية ولكن محاولة

تفعيل هذا التوظيف بالاعتماد على فرضية حتمية لرجوعية منتظرة كقدرة مستقبلية لدى الافراد وجماعات الافراد عائلات أيضاً من خلال نتائج هذه الدراسات، حيث أن التطبيقات العيادية للنظريات الخاصة بالارجاعية ممكنة على المجالين أساسيين هما:

• التكفل الفردي أو المجموعي لحالات تعيش معاناة أفراد، عائلات، مجتمعات.

• استخدام نموذج الارجاعية في مجال الوقاية، للاستعداد لتأثيرات جراء مواقف سلبية يمكن أن تواجه الحالات.

هناك من يركز على الموارد الخارجية من الشبكات الاجتماعية خارج العائلة، عندما تكون العائلة مقصرة، هنا نعتمد على تفعيل واستثارة التوظيفات المساعدة على التكيف والاستقلالية عند الفرد، آخرون يركزون على عوامل الحماية الداخلية، في هذه الحالة يتمثل التدخل في التكفل الاجتماعي التربوي أو العلاج النفسي الهادف الى إحياء ميكانيزمات الحماية الداخلية وتوجيه التوظيفات النفسية للمحافظة على الصحة النفسية، نموذج الارجاعية يتيح لنا نظرة جديدة لحماية الافراد والجماعات التي تتعرض للمحن، اذ يشجع تدخلات النفسانيين الاجتماعيين، المرضى، التربويين، والمدرسون، لأخذ بعين الاعتبار قدرات الافراد والعائلات، حيث برز في العقود الأخيرة هدف تطوير الارجاعية من خلال عدة تقنيات أميريقية على السواء علاجية ووقائية وأيضاً بناء بروتوكولات معينة لمساعدة الافراد كنموذج Cazita الهدف الرئيسي الموحد لهذه التدخلات هو مساعدة الأشخاص والجموعات الاسرية لاستكشاف موارد لديهم واثارة المنابع النفسية لمواجهة المواقف الصعبة في حياتهم، تدخلات أخرى موجهة للوقاية داخل بيئات توصف بالخطرة، حيث توجد برامج متابعة تربوية لهذه الشعوب التي تعيش بيئات ممرضة، وكذا مقاربات تتوجه نحو رؤية علاجية، للحماية والمساندة للأفراد والجماعات الذين تعرضوا الى مواقف صادمة (حداد، حوات، حروب، كوارث طبيعية)، وهكذا يطور العديد من الباحثين والمختصين طرق مساعدة لفائدة الافراد والجماعات من خلال نظريات الرجوعية.

لقد أظهرت الأبحاث الخاصة بالارجاعية في السنوات الأخيرة تطورات مهمة، بخصوص التطبيقات العيادية لمتابعة سيرورة الارجاعية كأعمال Sorbon Ionexu في مجال الارجاعية المتابع كما تلاه Nermangarmezi و Ann Masten وأيضاً Michael Rutter الذين أكدوا إمكانية بناء وتطوير الارجاعية لدى الافراد الذين لم يطوروه ذاتياً، ومنذ ذلك الوقت والبروتوكولات والنماذج لتطوير نموذج الارجاعية تجرب، ومجال سيرورة الارجاعية تعنى بالمجالات الثلاثة التالية:

الفرد بمكوناته البين نفسية والشخصية والسلوكية والمحيط والعلاقات العائلية والاجتماعية وخاصة أهم مجالات هي العمليات الفردية الدفاعية وتقدير الذات والتشجيع على النجاح في المجالات ذات الأولوية بالنسبة للفرد، ليس فقط النجاح الأكاديمي أو الاجتماعي او التربوي أو المهني، ما يهم هو الارجاعية الفردي الذاتي ليتوافق الفرد مع ذاته ومن أجل ذلك نحثم بالعائلة والمجتمع المدني والديني والثقافي التي يعيش ضمنها حيث ترى Ann Masten أن منابع الارجاعية ليست بالضرورة خارقة للعادة، فالارجاعية تعتمد على خصائص فريدة أو خاصة ولكن على سمات عادية أطلقت عليها اسم السحر العادي فالتطبيقات العيادية والنفس علاجية من خلال الرؤية السيكو دينامية والذين يهتمون بالتوظيف النفسي للرجوعية ودرسو وبجذر إمكانية المساعدة وبعض العلاجات النفسية مؤسسة على أساس هذا النموذج وتوجهات عيادية وتربوية واجتماعية ونفسو علاجية مؤسسة على تقنيات مثل الجينوقرا ، الرسم البياني، القصص ومختلف الوسائل الاتصالية صممت من اجل هذا الغرض، حيث تمثل وسائل تقنية لا تزال قيد التجريب، لتعطي فوائدها العيادية، والتراث النظري للرجوعية لا يخفي أنه توجد حدود لتوظيف الرجوعية، لهذا وجب دائماً الإشارة الى أن الفرد لا يكون رجوعياً في كل المواقف فمثلاً قد يكون أحدهم رجوعياً ولا يكون ناجحاً أكاديمياً، اذا انطلقنا من أن الارجاعية يمكن أن يبنى أو يستثار أو يطور من خلال مؤشراتته فقد وضعت Anaut قائمة لمؤشرات الارجاعية يمكن الاعتماد عليها لتطوير الرجوعية، ولا بد أن ننوه أنه هناك معاناة تخفيها الارجاعية كميكانيزم دفاعي وجب التطرق له كالقلق والاكتئاب. (Anaut, 2008, pp. 148-149)

## الخلاصة:

حاولنا جمع ما أمكن من تراث نظري بخصوص الارجاعية بداية بالإشارات الأولية والتقاطع بين المصطلحات والتعاريف وكذا المقاربات النفسية وما فيها عن الرجوعية، حيث تمكنا من إعطاء فكرة عن المعنى الشامل للرجوعية على الأقل لحد الساعة، لأنه مجال لايزال البحث متواصل لتحديده بدقة، تعرفنا على عوامل الحماية المساعدة على بناء وهيكلة الارجاعية كما جاء بها العلماء، وكذا علاقة الارجاعية وعمل الحداد، وعلاقتها المتواترة ذات الطابع الصراعى مع كل من القلق والاكتئاب.

## المراجع:

- الهلال الاحمر . (2012). القدرة على الصمود تحسير الفجوة بين الاغائة والتنمية من اجل مستقبل أكثر استدامة. الاتحاد الدولي لجمعيات الهلال الاحمر .  
 بدرة ميموني ، و مصطفى ميموني . (2010). سيكولوجيا النمو في الطفولة والمراهقة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .  
 بدرية كمال . (2022). الصمود النفسي لدى الاطفال. المجلة العلمية لكلية التربية للطفولة المبكرة جامعة المنصورة، المجلد التاسع ، صفحة 998.  
 جنان مزردى . (جوان، 2016). مدخل معرفي لمفهوم المجلد نظريات واسس. مجلة العلوم الانسانية، الصفحات 171-185.  
 حنان طالب . (2010). الصمم سوء المعاملة والمجلد. مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية .  
 خالد خياط . (جوان ، 2012). الدراسة التحليلية النفسية للقصيدة الشعرية. مجلة العلوم الانسانية .  
 عماد العويني . (2016). برنامج ارشاد قائم على المرونة الايجابية لتخفيف حدة بعض المشكلات النفسية والاجتماعية لدى عينة من الشباب الجامعي. القاهرة، مصر : جامعة عين شمس.  
 كريمة ميروح . (2010). الارجاعية لدى المسنين في دار الشيخوخة . قسنطينة: جامعة منتوري قسنطينة.  
 مُجَّد الصغير شرفي. (2010). مساهمة البعد الثقافي في سيرورة المجلد. مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية .  
 مُجَّد شرفي . (2017). المجلد نظرة ايجابية للصدمة النفسية. سطيف : مخبر علم النفس الاكلينيكي جامعة سطيف.  
 مريم شرشاري . (2012). المجلد لدى الطفل ذي الاب المريض عقليا. قسنطينة: جامعة منتوري قسنطينة.  
 مصطفى حجازي . (2012). اطلاق طاقات الحياة قراءات في علم النفس الايجابي. بيروت، لبنان : التنوير للطباعة والنشر.  
 مصطفى حجازي. (2006). الصحة النفسية منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة (المجلد 3). بيروت ، لبنان : المركز الثقافي العربي.  
 وفاء بركات. (2017). المقاومة النفسية كمتغير معدل للعلاقة بين نوعية الحياة وزملة أعرض التعب المزمن. القاهرة، مصر : جامعة القاهرة.  
 ولاء أبوزيد . (2014). فاعلية برنامج ارشادي تكاملي لتنمية المرونة الايجابية وتخفيف حدة الاحتراق النفسي لدى المرأة العاملة. القاهرة، مصر : جامعة عين شمس.  
 يحيى شقورة . (2012). المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعات الفلسطينية بمحافظة غزة. غزة، فلسطين : الجامعة الاسلامية غزة.

Anaut, M., & Cyrulnik, B. (2014). *Résilience de la recherche à la pratique (Sciences Humaines)*. Paris: Odile Jacob.

Joëlle , L., & Claude, d. (2004). *La résilience : Dépasser les traumatismes Broché*. Psych poket.

Anaut, M. (2008). *La resilience: surmonter les traumatismes*. Lyon, France: Armand Colin.

- Armstrong, M. I., Birnie-Lefcovitch, S., & Ungar, M. (2005). Pathways Between Social Support, Family Well Being, Quality of Parenting, and Child Resilience: What We Know. *Journal of Child and Family Studies*.
- Bergeret, J. (1982). *Psychologie, théorique et chimique*. Paris : Edition masson.
- Boris , C. (2022). *Résilience – Protection et vulnérabilité*. Montréal: Del Busso éditeur.
- Bouzriba , R. (2013). *La resilience emergence et conceptualisation du phenomene* (6 ed.). Biskra, Algeria: Revue des sciences de l'homme et de la societe.
- Chelala, H. (2012). *Du traumatisme \_a la resilience chez les \_eleves dans les classes primaires dans le contexte de la guerre de juillet 2006 au Liban-sud*. Bordeaux, French: Universit\_e Michel de Montaigne.
- Detychey, C. (2001). *Surmonter l'adversité : les fondements dynamiques de la résilience*. Paris : Cahiers de psychologie clinique.
- Do Thanh, M.-N. (2013). *Différences culturelles au travail, Impact sur l'intégration et la santé des travailleurs étrangers*. Montréal, Canada: Université de Montréal.
- Enza , M. (2007). *Les approches basées sur la résilience*. Paris, Franch: CNRS Centre national de la recherche.
- Luthar, S. S. (2009). *Resilience is not a unidimensional construct: Insights from a prospective study of inner-city adolescents*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Manon, T. (2006, December ). Exploration De La Résilience éducationnelle Chez Des Enseignants. *International Review of Education*.
- Michael , R. (2002, December 16). Resilience concepts and findings: implications for family therapy. *Journal of Family Therapy*, pp. 119-237.
- Shankland, R. (2014). *La psychologie positive*. Paris, France: Dunod.
- Shankland, R. (2014). *La psychologie positive*. Paris: France.
- Sillamy, N. (1999). *Dictionnaire de psychologie*. Paris, France : Larousse Her .
- Steven J, W., & Sybil, W. (1993). *The Resilient Self: How Survivors of Troubled Families Rise Above Adversity*. Michigan, USA: Villard Books.
- Tugade, M., Fredrickson, B., & Barrett, L. (2004, December 1). Psychological resilience and positive emotional granularity: examining the benefits of positive emotions on coping and health. *Journal of Personality*.
- Werner, E. (1995). Resilience in Development. *Current Directions in Psychological Science*, pp. 81-84.
- Zacharyas, C. (2010). *La résilience sous l'angle de l'autodétermination pour une meilleure santé psychologique des enseignants*. Montréal, Canada : Université de Montréal.